قضية الخفة والثقل وأثرها في النحو العربي

أحمد حسن حامد *

LIGHTNESS ANDHEAVINESS ISSUE AND ITS INFLUENCE IN ARABIC GRAMMAR

Ahmad Hamid

ABSTRACT

This research aims , in general , to reconsider morphological and grammatical issues that were not influenced by reasoned and philosophic sciences ; the building of these issues relied on the language itself and its reasoned elements that help overcome problems before language researchers , in general , and morphology and grammar in particular , Among the issues dealt with by the researcher are : Addition and Completion , Language ' substitutions and Lightness and Heaviness which is the subject of this research .

In dealing with heaviness and lightness , the researcher addressed the following :

1 – Historical study of the issue .
2 – Heaviness and lightness on phonetic level .
3 – Heaviness and lightness on morphological level .
4 – Heaviness and lightness on grammatical level .
5 – Lightness and heaviness issue and its effect on reasoning .

The research reached the following :

1 – Linguists , generally , and grammarians , particularly , dealt with the lightness and heaviness issue ; they used it to explain problems related to sound , word and grammatical structure . But because their efforts were scattered , the reader can not ne acquainted with all of them .

* أستاذ النحو والصرف ـ قسم اللغة العربية ـ كلية الآداب ـ جامعة النجاح الوطنية .

2 – In their dealing with sound , word and grammatical structure , grammarians followed two tracts : the first derived its strength from sciences not related to language such as Common sense , Vocabulary and others ; the second derived its strength from the language itself but grammarians concentrated more on the first .

ملخـــص

يجيء هذا البحث ضمن هدف عام سعى اليه الباحث منذ فترة من الزمن ، وهو اعادة النظر في القضايا الصرفية والنحوية التي نأت عن التأثر بالعلوم المنطقية والفلسفية ، واستمدت من اللغة ذاتها أسس بنائها وتعليل عناصرها بغية الافادة منها في تذليل الصعاب أمام دارسي اللغة بعامة والنحو والصرف بخاصة وكان من ضمن هذه القضايا التي تناولها الباحث : الحذف والزيادة ، والنيابة اللغوية ، ثم الخفة والثقل موضوع هذا البحث .

ولتحقيق ذلك الهدف تناول الباحث قضية الخفة والثقل من الجوانب التالية :

١ ـ دراسة تاريخية لمظاهر القضية .

٢ ـ الخفة والثقل على المستوى الصوتي .

٣ ـ الخفة والثقل على المستوى الصرفي .

٤ ـ الخفة والثقل على المستوى النحوي .

٥ ـ قضية الخفة والثقل وأثرها في التعليل .

وقد كشف البحث عن عدة أمور أهمها :

١ ـ أن علماء اللغة بعامة والنحاة بخاصة قد عنوا بقضية الخفة والثقل ، واعتمدوها من أسس التعليل لكثير من مسائل الصوت والكلمة والتركيب النحوي . غير أن جهودهم جاءت متناثرة في تواليف النحو العربي بحيث يصعب على القارىء الإلمام لها .

٢ ـ سار النحاة في تعليلهم لقضايا الصوت والكلمة والتركيب في اتجاهين : الأول استلهم قوته من علوم خارجة عن اللغة كالمنطق وعلم الكلام وغيرهما . والثاني استمد قوته من اللغة ذاتها . وقد عني النحاة بالجانب الأول أكثر من الثاني .

٣ ـ أثرت قضية الخفة والثقل في منهج النحاة فرتبوا بعض أبواب النحو العربي وفق هذه القضية .

٤ ـ ان القضايا اللغوية النحوية التي عللت على أساس لغوي لم تؤد الى خلافات تذكر بين النحاة على عكس تلك التي رَجعوا في تعليلها الى علوم المنطق والكلام والفقه . ومن ثم كثرت الكتب الخلافية في الثانية دون الأولى .

جَرَى النُّحـاةُ على ذكـر القضية النحـوية الـواحدة في أكثر من باب من أبواب النحو العربي ، بحيث يجد الدارس لها صعوبة في الإلمام بها ، والإحاطة بجوانبها ،والوقوف على أهميتها. ومن هذه القضايا قضية الزيادة ، والحذف والإنابة (الاستعواض) ، والتقديم والتأخير ، والخفة

والثقل . فقضية الزيادة تذكر مرةً في علم الصرف ومسائله [١] ، وتارة أخرى تذكر متناثرة هنا وهناك في أبواب النحو العربي ، وبخاصة في باب كان وأخواتها [٢] وفي باب المنصوبات [٣] ، وكذلك في حروف الزيادة [٤] .

أمّا قضية الحذف فقد أشار اليها النحاة في مسائل كثيرة سواء كان ذلك على مستوى بناء الكلمة المفردة كما هي الحال في مبحث الإعلال بالزيادة ، أو على مستوى التركيب ، كحذف الجملة نحو قولك : « لأَفْعَلَنَّ ، أو وَاللَّه لأَفْعَلَنَّ) والأصل أُقْسِمُ باللَّهِ لأَفعلَنَّ » ، وفي حذف جملة الشرط نحو قوله تَعَالَى : فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ [٥] . وحذف جملة الصلة نحو قول الشاعر :

وَعِنْـدَ الّـذي وَالـلّاتِ عُدْنَـكَ إحْنَـةُ عَلَيْكَ فَلَا يَغْـرُرْكَ كَيْدُ الـعَـوَائِـدِ [٦]

كما نلاحظ هذه القضية متنـاثرة في أبواب النحو كالمبتدأ والخبر ، وٱسم كان وخبرها ، والمفعول به والحال والتمييز والاستثناء ، وفي التوابع كالصفة والموصوف ، والمعطوف والمعطوف عليه ، وفي المضاف والمضاف اليه وفي الأدوات النَّحوية [٧] .

أما قضية النيابة أو « الاستعواض اللغوي » فقد تناثرت موضوعاتها في كتب اللغة والنحو دون إفراد مبحث خاص يلمّ شتاتها ، ويجمع مواقعها في العربية من أجل استغلالها والإفادة منها في الدراسة الأدبية أو اللغوية اللهم إلاّ أن ٱبن جنِّي قد تحدث في مبحث صغير بعنوان « إنابة الحركة عن الحرف والحرف عن الحركة » [٨] ، غير أن هذه القضية أوسع بكثير مما ذكر ابن جنِّي ، إذ نجد جذورها تمتد في أبواب نحوية متعددة كباب المفعول الذي لم يسم فاعله ، والمفعول

١ - ٱبن جنّي ، أبو عثمان : **المنصف** تحقيق ، ابراهيم مصطفى ، وعبد الله أمين ، . ط ١ ، القاهرة ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، سنة ١٩٥٤ ج ١ / ١١ ، ١٣ ، ١٥ .

٢ - ابن هشـام : جمال الـدين : **أوضح المالك إلى ألفية ابن مالك** ، تحقيق محمد محيي الدين ، ط ٥ ، القاهرة ، سنة ١٩٤٩ ، ج ١ / ٢٥٧ .

٣ - يرى النحاة أن الجملة النحوية تتألف من مسند ومسند إليه ، وكل ما عداهما زائد لا حاجة إليه في البناء الأساسي للجملة ومن ثم تردد على ألسنتهم ما أطلقوا عليه العمدة والفضلة وعدّوا المرفوعات من العمد ، والمنصوبات والمجرورات من الفضلات الزائدة .

٤ - الزمخشري ، محمود بن عمر : **المفصّل في علم العربية** ، ط ٢ ، بيروت ، دار الجيل ص ٣١٢ ، وٱبن هشام : **مغني اللبيب** ، تحقيق د. مازن المبارك وآخرين ، ط ٣ ، بيروت ، دار الفكر سنة ١٩٧٣ ص ٣٨ ، ٥٠ .

٥ - من الآية ٣١ من سورة آل عمران .

٦ - لم نعثر على قائله . وهو من الطويل ، اللات : لغة في اللاتي . ينظر ٱبن هشام : **مغني اللبيب** ص ٨١٦ .

٧ - فصلت القول في قضية الحذف ومواقعها في النحو في بحثي الموسوم بـ « **دراسات في أسرار اللغة** » نشر مكتبة النجاح الحديثة ، نابلس ، ط ١ ، ١٩٨٤ ص ١٠١ - ١١٢ .

٨ - ابن جني : **الخصائص** ، تحقيق محمد علي النجار ، ط ٢ ، بيروت ، دار الهدى للطباعة والنشر ١٣٣/٣ .

المطلق ، والمبتدأ والخبر ، والصفة والموصوف ، والتعدي واللزوم وغيرها [٩] .

أمَّا قَضِيَّةُ التَّقديم والتأخير فقد تعدد وجودها في أبواب النحو العربي دون أن يفيد منها النحاة الفائدة المرجوة ؛ إذ اقتصرت افادتهم منها من حيث علاقة المتقدم أو المتأخر في بناء الجملة العربية ، غير أن الافادة منها ظهرت بصورة جلية عند علماء البلاغة وبالذات عند عبد القاهر الجرجاني الذي أفاد منها في نظم العبارة ودلالتها [١٠] ثم اكتفى المتأخرون بترديد فكرة عبد القاهر الجرجاني دون التوسع في استغلالها وبخاصة في الشعر العربي .

ويمكن القول : إن قضية الخفة والثقل ، التي هي محور بحثنا هذا ، تقف جنباً الى جنب مع تلك القضايا السابقة ، وهي ، جميعاً ، تستلهم عناصرها وقوتها من اللغة ذاتها بحيث ينعدم التأثير الفلسفي والمنطقي الذي نلاحظه في قضايا أخرى كالعلة والمعلول ، والعامل والمعمول ، والاصل والفرع وما اليها من القضايا التي شغلت النحاة زمناً طويلاً ، وجرتهم الى خلافات ومماحكات لا طائل منها ، وصرفتهم عن البحث في قضايا لغوية ونحوية أخرى نابعة من اللغة وعلومها ، لا من المنطق ومقاييسه ، الامر الذي دفع ببعض النحاة الى التصدي لما وقع بينهم من جدل رياضي ومنطقي بحيث ملئت تواليف النحو العربي بالتأويل غير المقبول عند بعض النحاة : ومن ثم نادى فريق من المتأخرين منهم بضرورة الغاء فكرة العامل المستمدة من المنطق وفي مقدمة هؤلاء ابن مضاء القرطبي الذي ألف كتاباً مستقلاً سمّاه « الرد على النحاة » طلب فيه إلغاء العامل فقال : « فمن ذلك ادّعاؤهم أن النصب والخفض والجزم لا يكون إلّا بعامل لفظي ، وانّ الرفع منها يكون بعامل لفظي وبعامل معنوي ، وعبّروا عن ذلك بعبارات توهم أن قولنا : ضَرَبَ زَيْدٌ عَمْراً » أن الرفع الذي في زيد ، والنصب الذي في عمرو إنما أحدثته ضَرَبَ فظاهر هذا أنّ العامل أحدث الإعراب وذلك بيّن الفساد [١١] .

ولا غرابة في ذلك ، فقد كان لعلوم المنطق الكلام والفقه والحديث أثرها الملموس في قضايا النحو ، قال سعيد الأفغاني : « إنَّ علماء العربية احتذوا طريق المحدثين من حيث العناية بالسند ورجاله وتجريحهم وتعديلهم وطرق تحمل اللغة فكانت لهم نصوصهم اللغوية كما كان لأولئك نصوصهم الحديثية ، ثم احتذوا المتكلمين في تطعيم نحوهم بالفلسفة والتعليل ثم حاكوا الفقهاء

---

٩ ـ أحمد حامد : **دراسات في أسرار اللغة** ص ٩٠ ـ ١٠١ .

١٠ ـ الجرجاني ، عبد القاهر : **دلائل الاعجاز** ، صححه الشيخ محمد رشيد رضا ، بيروت ، دار المعرفة سنة ١٩٧٨ ، ٩٥ ـ ١١١ .

١١ ـ ابن مضاء القرطبي : **الرد على النحاة** ، تحقيق محمد ابراهيم البنا ، ط ١ ، القاهرة ، دار الاعتصام ص ٦٩ .

وكـان لهم طرازهم في بنـاء القـواعد على السماع والقياس والاجماع كما بنى الفقهاء استنباط احكامهم على السماع والقياس والاجماع ، وذلك أثر واضح من أثر لعلوم الدينية في علوم اللغة »[(١٢)] .

وَالـدَّارِسُ لِكتَـابِ سيبـويه ، وهو أول كتاب جامع لقضايا الصوت والكلمة والنظم والدلالة ـ يلاحظ هذا التأثير بوضوح قال أحمد أمين : « والكتاب مملوء بالقياس والعلل ، وقد استعمله في مهارة وكثرة ، فهو يولِّد من الشيء أشياء ، ويعلل ويقيس ، ويذكرنا عمله بتفريع الحنفية وتعليلها وقياسها »[(١٣)] . هذا التأثير المنطقي دفع النحاة الى الاجتهاد والتعليل الفلسفي الذي أضر ببعض مسائل النحو العربي ، وأبعدهم عن التعليل المستمد من اللغة ذاتها . وكان الأولى بالنحاة ونقاد اللغة أن يصرفوا اهتمامهم إلى إظهار القضايا النَّحوية التي تعتمد على اللغة للإفادة منها في دراسة التراث الأدبي ، اذ لو تمّت هذه العناية لقلنا : إن ما يطلق عليه النقاد المحدثون (أسلوبية) قد عرفه العرب منذ أزمان ، صحيح إنَّ الذين أفادوا من ظواهر اللغة هم رجـال البلاغة العرب ؛ إذ كانت لهم جولات مهمة ومفيدة في مجال التقديم والتأخير والحذف والزيادة ، والنفي والاستفهام على نحو ما نرى عند عبد القاهر الجرجاني في دلائل الاعجاز ، ولكن من الصحيح أيضاً أن دراسة الشعر العربي عند القدماء لم تعن بهذه القضايا بمعنى أننا لم نجد في المكتبة العربية دراسات معنونة بأحد العناوين التالية : النفي والاستفهام في شعر أمرىء القيس أو الحذف والزيادة في شعر المتنبّي ، أو الخفة والثقل في عبارة هذا الشاعر أو ذاك وانما كانت دراساتهم منصبة على حياة الشاعر ، وأغراض شعره ، أو على سرقاته ممن سبقه من الشعراء .

ومـع أهمية القضايا النَّحْوية التي استمدت قوتها من اللغة ذاتها ، والتي لاحظها علماء البلاغة قديماً ولجأ إليها رجال النقد والأدب حديثاً إلا أنها لم تدرس في النحو كقضايا مستقلة ذات دلالات لغوية مفيدة ، ومن هنا رأيت أن أخوض في هذه القضايا فبدأت الحديث عن قضايا الحذف والزيادة ، والإنابة ، فجمعتُ شتاتها ، وبيَّنتُ أهميتها ، وأبرزتُ مواقعها في النحو والصرف في كتاب « دراسات عن أسرار اللغة » . أمّا هنا فإني خصصت البحث عن قضية الخفَّة والثّقل في النحـو العـربي بوصفـه نحواً شاملاً لقضايا الصَّوْتِ والكَلِمَةِ والنَّظْمِ والدّلالة وذلك وفق العناصر الرئيسية التالية :ـ

أ ـ دراسة تاريخية لمظاهر القضية .

١٢ ـ الأفغاني ، سعيد : في أصول النحو ، ط ٣ ، دمشق ، مطبعة الجامعة سنة ١٩٦٤ ص ١٠٤ .

١٣ ـ أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ط ٧ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٣٥ ج ٢/٢٩٥ .

ب ـ الخفة والثقل على المستوى الصوتي .
ج ـ الخفة والثقل على مستوى الكلمة المفردة .
د ـ الخفة والثقل على المستوى التركيب النحوي .
هـ ـ قضية الخفة والثقل وأثرها في التعليل .

أ ـ دراسة تاريخية لمظاهر القضية : -

نقول ، بادىء ذي بدء ، إنَّ علماء العَربية ، أشاروا في أكثر من موقع في كتبهم إلى قضية الخفة والثقل ، واتخذوها وسيلة من وسائل التعليل لكثير من الظواهر الصوتية والصرفية والنحوية ، فهذا الخليل بن أحمد (ـ١٧٥ هـ) يصرح بأن الصوت الذي يعمل في إخراجه عضوان أثقل مما عمل فيه عضو واحد ، مشيراً بذلك إلى أن الضمةَ تحتاج في إخراجها الى تحريك الشفتين أما الفتحة فتحتاج إلى تحريك وسط الفم ، ومن ثم كانت الفتحة عنده أخف من الضمة [١٤] . كما لاحظ الخليل ثقل نطق الأصوات الساكنة كالباء والتاء والثاء ... الخ الأمر الذي أضطره إلى جلب ألف الوصل ليتمكن بها نطق تلك الأصوات .

أمَّا سيبويه (ـ١٨٠ هـ) فَقَد سَخَّر مَا تعلَّمه من الخليل من الأصوات اللغوية في دراسة مواضيع الإعلال والإبدال والقلب والادغام ، ومدار هذه الأبواب جميعاً حول تأثر الأصوات بعضها ببعض وعلاقة المتقدم منها بالمتأخر ، والأصل والفرع ، ، ثم إمكانية قلب أحدها إلى صوت آخر . كل ذلك مما يشكل بناء الكلمة المفردة قبل أن تأخذ مكانها في التركيب النحوي . ومن ثم وجّه سيبويه عنايته صوب تحديد مخارج الحروف وصفاتها غايته من ذلك معرفة ما يحسن فيه الادغام وما يجوز فيه ، ومما لا يحسن فيه ذلك ولا يجوز فيه ، وما تبدله استثقالاً وما تخفيه بزنة المتحرك [١٥] .

والممعن النظر في كتاب سيبويه يلاحظ أنه قد أشار إلى قضية الخفة والثقل في مواضع كثيرة منه ، معبراً عنها بعبارات مختلفة كالاستثقال أو التثقيل ، والتخفيف والخفة ، ويثقل ويستثقلون ، ويخففون ، واستثقلوا وأثقل وأخف ، والأثقل والأخف [١٦] . قال : زِدْتُ كانت

---

١٤ ـ السيوطي ، جلال الدين : **الأشباه والنظائر** ، ط ١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، سنة ١٩٨٤ ج ١ / ١٩٣ .
١٥ ـ سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان : **الكتاب** ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٧٥ ج ٤ : ٤٣١ .
١٦ ـ سيبويه : ٤ : ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ ، ٣٨٢ ، ٣٨٨ ، ٣٩٧ ، ٤١١ ، ٤١٦ ، ٤١٧ .

والحذف [٢٤] ، والإنابة [٢٥] ، والتقديم والتأخير [٢٦] ولكنّه إلى جانب ذلك تحدث عن قضايا لغوية أخرى لجأ فيها اللغويون الى المنطق ؛ من ذلك قضية الأصل والفرع ، والقياس ، والعلة والمعلول ، والعامل والمعمول وما إليها مما هو متناثر في ثنايا كتابه الخصائص .

كما حظيت قضية الخفة والثقل بجانب ملحوظ من عناية اّبن جني ، إذ أشار إليها حين تحدث عن خفة الفعل الثلاثي دون الرّباعي والخماسي [٢٧] ، وخفة الفتحة دون الضمة والكسرة [٢٨] . وذكر أنَّ العرب تميل إلى التخفيف والبعد عمّا يستثقل على السنتهم [٢٩] .

يبدو أنَّ الذين جاءوا بعد اّبن جني قد تأثروا بما ذهب إليه هو ومن سبقه في بيان الخفة والثقل فهذا الزمخشري (٥٣٨ هـ) يشير إلى الخفة والثقل في أثناء تعرضه لموضوع الادغام فيقول : « ثِقَلُ التقاءُ المتجانسين على ألسنتهم فعمدوا بالادغام إلى طلب الخفة [٣٠] .
وقال : « ولكثرة القسم في كلامهم أكثروا التصرف فيه ، وتوخّوا ضروباً من التخفيف من ذلك حذف الفعل في ، باللّه ، والخبر في ، لَعَمْرُكَ وأخواتِه » [٣١] ومن تأثره بسيبويه نقله لأقواله من ذلك قول سيبويه : « ولا نعلمهم أتمّوا في الواو ، لأن الواوات أثقل عليهم من الياءات » [٣٢] .

من الذين عنوا بقضية الخفة والثقل اّبن الأنباري (ـ٥٧٧ هـ) يبدو ذلك واضحاً في كتابة أسرار العربية ، اذ اعتمد الخفة والثقل وسيلة من وسائل التعليل اللغوي ، قال في الوجه الثاني من أوجه تعليل كون فعل التعجب منقولاً من الثلاثي دون غيره : « إنَّ الثلاثي أخف من غيره ، فلما كان أخف من غيره ، احتمل زيادة الهمزة ، وأمّا ما زاد على الثلاثة فهو ثقيل فلم يحتمل الزيادة [٣٣] .

---

٢٤ ـ ابن جني : ٢٦٠/٢ .
٢٥ ـ ابن جني : ١٣٣/٣ .
٢٦ ـ ابن جني : ٣٨٢/٢ .
٢٧ ـ ابن جني : ٦١/١ .
٢٨ ـ ابن جني : ٧٨/١ .
٢٩ ـ ابن جني : ٨٦/١ .
٣٠ ـ الزمخشري : **المفصل** ص ٣٩٣ .
٣١ ـ الزمخشري : ص ٣٤٤ .
٣٢ ـ الزمخشري : ص ٣٧٨ .
٣٣ ـ ابن الانباري ، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد : **أسرار العربية** ، تحقيق محمد بهجة البيطار ، دمشق ، مطبعة الترقي سنة ١٩٥٧ ص ١٢٠ .

أمّا في العصر الحديث فقد عُني علماء اللغة بمظاهر الخفة والسهولة في العربية ، وقصروها على الجانب الصوتي من اللغة فهذا ابراهيم أنيس يصرح بأن « الانسان في نطقه لأصوات لغته يميل إلى الاقتصاد في المجهود العضلي ، فتلمس أسهل السبل مع الوصول إلى ما يهدف إليه من إبراز المعاني وإيصالها الى المتحدثين معه » (٣٤) كما اشار إلى الخفة والسهولة رمضان عبد التواب في كتابه (التطور اللغوي) حيث تحدث عنها قانون السهولة والتيسير (٣٥) ومن الجدير بالذكر أن المحدثين لم يقصروا الحديث عن السهولة على اللغة الفصيحة وإنما تجاوزوا ذلك الى اللغة العامية .

وهكـذا نجد أن قضية الخفة والثقل قضية قديمة جديدة بمعنى أنها كانت في متناول الباحثين في حياة اللغة العربية ، وإن كانت متناثرة ومبعثرة في تواليف اللغة والنحو .

ب ـ الخفة والثقل على المستوى الصوتي :

حظي علم الأصوات عند العرب بعناية فائقة ؛ إذ عرفوا جهاز النطق وحددوا مدارجه وأجزاءه (٣٦) هدفهم من ذلـك بيان مخارج الحـروف وصفـاتهـا ثم استغـلالها في بناء الكلمة وفصاحتها ، ومن ثم وضعوا مصطلحات صوتية ما يزال الباحثون يتداولونها حتى الآن كالاطباق والانفتـاح والتفخيم والتـدقيق والشـدة والرخاوة والإشباع والإشمام ونحو ذلك ، ولم ترو لنا تصانيف التراث اللغوي أن علماء اللغة درسوا أصوات العربية لذاتها أي بوصفها دراسة رياضية خالصة وإنما درسوها لغايات أخرى ، إما لتحليل بنية الكلمة المفردة وبيان توافق أصواتها بعضها ببعض ، وإمّا لمعرفة اندماج صوت في صوت آخر يخفف على المتكلم نطقها ، واما لبيان فصاحة الكلمة المفردة في ضوء ما يسبقها وما يلحق بها من كلمات في إطار الجملة ، وإمّا لأداء الآية القرآنية أداءاً صحيحاً ذا جرس مؤثر في النفس .

وتروي لنا كتب التراث اللغوي أن تأصيل البحث في الأصوات اللغوية يرجع إلى ثلاثة أعلام هم الخليل بن أحمد ، وسيبويه ، وابن جنّي وأما من جاء بعدهم فقد سار على طريقتهم في تحديد مخارج الأصوات وصفاتها .

---

٣٤ ـ إبراهيم أنيس : **الأصوات اللغوية** ، ط ٢ ، القاهرة ، مطبعة لجنة البيان العربي سنة ١٩٥٠ ص ١٦٩ .

٣٥ ـ رمضان ، عبد التواب : **التطور اللغوي ، مظاهره وعلله وقوانينه** ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ص ٤٧ .

٣٦ ـ قال برجسشتراسر : لم يسبق الاوروبين في هذا العلم الاقومان : **العرب والهنود** . أحمد مختار **البحث اللغوي عند العرب** ، ط ٢ ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٧٨ ص ٧٩ .

فالخليل عرف جهاز النطق ، وبين أجزاءه ، وفي ضوء احتكاك الهواء أو عدم احتكاكه بتلك الأجزاء حدد مخارج الحروف العربية وصفاتها ، كما يعد الخليل أوّل من رصد الصوت في بناء المعجم ، وبهذا يكون عمله من الأعمال المبكرة في الإفادة من الأصوات اللغوية في تحليل بناء الكلمة العربية وتركيبها كما أفاد منها في بيان الجمال الموسيقي لمقاطع الشعر العربي .

أما سيبويه فيعد من أشهر من استغل معرفته للأصوات اللغوية في دراسة مواضيع الإعلال والإبدال والقلب والإدغام . أما ابن جنّي فقد وضع كتاباً مستقلاً في الأصوات اللغوية سمّاه « سر صناعة الإعراب » [٣٧] ، وهو دراسة وافية لأصوات العربية من حيث المخرج والصفة علاوة على موقعها في التراث اللغوي .

ومن الجدير بالذكر أن علماء اللغة العرب قد اعتمدوا الذوق وسيلة لمعرفة مخرج الصوت وصفته قال اللّيث بن المظفر : « لمّا أراد ـ الخليل ـ الابتداء في كتاب العين أعمل فكره فلم يمكنه أن يبتدىء في أول حروف المعجم ، لأن الألف حرف معتل ، فلما فاته أول الحروف كره أن يجعل الثاني أولاً وهو الباء إلا بحجة ، وبعد استقصاء ، فدبر ونظر الى الحروف كلها وذاقها فوجد مخرج الكلام كلّه من الحلق ، فصير أولاها في الابتداء أدخلها في الحلق ، وكان اذا أراد أن يذوق الحرف فتح فاه بالألف ثم أظهر الحرف ثم يقول : آب ، آت ، آث ، آج .... الخ [٣٨]

وقد سلك سيبويه مسلك استاذه في اعتماد الذوق وسيلة لمعرفة مخارج الحروف وصفاتها ، كما اعتمد ابن جنّي ، الطريقة ذاتها [٣٩] ثم استطاع هؤلاء العلماء أن يلحظوا خفة الحروف أو ثقلها دون اللجوء الى مقاييس منطقية أو فلسفية خارجة عن نطاق اللغة ، ولعل أهم ملامح الخفة والثقل في المجال الصوتي تبدو فيما يلي :-

١ ـ الحركات (الفتحة ، الضمة ، الكسرة) :-

لقد قرر علماء اللغة أن الحركات ثلاثة هي : الفتحة والضمة والكسرة وهي أبعاض حروف الألف والواو والياء [٤٠] . وقد فاوتوا بين تلك الحركات من حيث الخفة والثقل فوجدوا أن

---

٣٧ ـ طبع هذا الكتاب سنة ١٩٥٤ بتحقيق مصطفى السقا وآخرين .

٣٨ ـ ابن منظور ، جمال الدين ، محمد بن مكرم : **لسان العرب** ، طبعة بولاق ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ٧/١ .

٣٩ ـ ابن جني : **الخصائص** ٧٥/١ .

٤٠ ـ ابن جني : **سر صناعة الاعراب** ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، ط ١ ، القاهرة ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٩٥٤ ج ١٩/١ .

الفتحة أخفها ، والضمة أثقلها والكسرة أثقل من الفتحة وأخف من الضمة ، وقد أشار سيبويه الى ذلك فذكر أن الفتح أخف على العرب من الضم والكسر كما أن الألف أخف من الواو والياء [٤١].

٢ ـ يرى علماء اللغة أن نطق الأصوات الساكنة أمر صعب وثقيل ومن ثم لجأوا إلى جلب ألف وصل ليتمكن النطق بها ، على نحو ما فعل الخليل حين أراد الابتداء بأحد حروف المعجم .

٣ ـ درس سيبويه التضعيف بوصفة ظاهرة صوتية وبين أن العرب استكرهته لصعوبته في النطق فقال : « اَعْلَمْ أَنَّ التضعيف يثقل على ألسنتهم وان اختلاف الحروف أخف عليهم من أن يكون من موضع واحد ، ألا ترى أنهم لم يجيئوا بشيء من الثلاثة على مثال الخمسة نحو : ضَرَبَّبٍ ، ولم يجيء فَعَلَّلٌ ولا فُعُلَّلٌ إلا قليلاً ولم يبنوهنّ على فُعَالٍ كراهية التضعيف ، وذلك لأنه يثقل عليهم أن يستعملوا ألسنتهم من موضع واحد ثم يعودوا له ، فلما صار ذلك تعباً عليهم أن يداركوا في موضع واحد ولا تكون مهلة كرهوه وأدغموا لتكون رفعةً واحدة ، وكان أخف على ألسنتهم مما ذكرت لك » [٤٢]. وللتخلص من صعوبة التضعيف وثقله لجأ العرب الى الادغام أو الى زيادة حرف لين لييسر عليهم النطق في مثل : تَسَرَّيْتُ وَتَظَنَّيْتُ وَتَقَصَّيْتُ ، وأَمْلَيْتُ [٤٣].

٤ ـ واذا كان التضعيف مستكرهاً عند العرب لثقله في النطق فإنَّ الادغام مجاز عندهم بوصفه وسيلة من وسائل التخفيف في نطق الأصوات المتجاورة والمتقاربة في المخرج والصفة ؛ إذ يعني في عرفهم نطق الحرفين المتماثلين دفعةً واحدة بغير فاصل من حركة أو صمت نحو : (شدّ ، ولم يحبس سعيداً) [٤٤]. وقد وضع علماء اللغة للادغام قواعد توجبه تارة وتجيزه أخرى ، وتمنعه ثالثة . وهي مبثوثة هنا وهناك في كتب التراث اللغوي ، والذي يعنينا هنا أثر الخفة والثقل في موضوع الادغام ، اذ لو حاولت نطق الأفعال التالية (شدّ ، ملّ ، حبّ ، ردّ) وأشباهها بغير ادغام فانك ستشعر ـ لا محالة بالثقل ومن ثم كان للادغام دور واضح في إزالة هذا الثقل .

٥ ـ وتبدو الخفة والثقل واضحة في ظاهرة الهمز في العربية ، فمن المعروف أن بعض القبائل العربية مالت الى تحقيقها كقبيلة تميم ، أو إلى التخلص منها لثقلها كقبائل الحجاز ، ويفسر

٤١ ـ سيبويه : **الكتاب** ١١٥/٤ .

٤٢ ـ سيبويه ٤١٧/٤ .

٤٣ ـ سيبويه ٤٢٤/٤ .

٤٤ ـ الانطاكي ، محمد : **المحيط في اصوات العربية ونحوها وصرفها** ، بيروت ، دار الشروق ١٢٣/١ .

علماء الأصوات ذلك بعسر نطق صوت الهمزة ، لأنه يحدث « بانحباس الهواء خلف الأوتار الصوتية ثم انفراج هذه الأوتار فجأة ، وهذه عملية تحتاج إلى جهد عضلي كبير » (٤٥) .

وقد لجأ العرب الى التخلص من ثقل الهمزة الى التماس إحدى الطرق المؤدية الى تخفيفها كالـوصـل والابدال والتسهيل والحذف ، فقد وصلوها في مواطن الوصل ، وأوجبوا إبدالها إذا سكنت بعد همزة فإذا كانت حركة الهمزة الأولى فتحة أبدلت الثانية ألفاً نحو : (آثر) فإنَّ أصلها (أأْثر) ، وإذا كانت ضمة أبدلت واوا نحو : (أوثر) فإنء أصلها (أُؤْثر) ، وإن كانت كسرة أبدلت ياء نحو : (ايثار) فإنَّ أصلها (إئْثار) .

كما أجـازوا فيها الإبدال والتحقيق إذا انضمت الهمزة الثانية أو انكسرت وانفتح ما قبلها ، فأجازوا في مضارع (أمّ) أن نقول : (أوْم وأوم) . واذا سكنت بعد غير الهمزة فان كان ما قبلها مفتوحاً أبدلت واوا ، وان كان مكسوراً أبدلت ياء نحو : (رَأْس راس ، سؤل سول ، بئر بير) وما ذلك إلا للتخلص من صعوبة نطق الهمزة ومن ثم لجأوا إلى الخفة التي تتفق والطبيعة الانسانية (٤٦) .

٦ ـ ومن أثر الخفة والثقل ما نلحظه في موضوع الإمالة ، التي هي في جوهرها ظاهرة صوتية تتفاعل فيها أحداث صوتية بحيث تشكل في النهاية بنية صوتية يسهل على المتكلم نطقها ، قال سيبويه : « فالالف تمال إذا كان بعدها حرف مكسور ، وذلك قولك : عَابِد وعَالِم ومسَاجِد وعذافِر وهابيل ، وإنما أمالوها للكسرة التي بعدها ، أرادوا أن يقربوها منها كما قرّبوا في الادغام الصاد من الزاي حين قالوا : صدر ، فجعلوها بين الزاي والصاد ، فقربها من من الزاي والصاد التماس الخفة » (٤٧) وقال أيضاً : « ومما يميلون ألفه كل شيء من بنات الياء والواو كانت عينه مفتوحة ، أمّا ما كان من بنات الياء فتمال ألفه لأنها في موضع ياء وبدل منها فنحو نحوها كما أن بعضهم يقول : قد رُدّ ... وأما بنات الواو فأمالوا ألفها لغلبة الياء على هذه اللام ؛ لأن هذه اللام التي هي واو اذا جاوزت ثلاثة أحرف قلبت ياء ، والياء لا تقلب على هذه الصفة (واوا) فأميلت لتمكن الياء في بنات الواو ؛ ألا تراهم يقولون : معْدِيٌّ ومسْنيٌّ (٤٨) والقُنِيّ والعُصِيّ ، ولا تفعل هذا الواو بالياء فأمالوها لما ذكرت لك ، والياء أخف

٤٥ ـ رمضان ، عبد التواب : **لحن العامة والتطور اللغوي** ط ١ ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٧ ص ٤٥ .
٤٦ ـ أحمد حامد : **السكاكيني في النهضة الفكرية المعاصرة** ، ط ١ ، نابلس سنة ١٩٨٠ ص ١٠٣ .
٤٧ ـ سيبويه : **الكتاب** ١١٧/٤ .
٤٨ ـ المسني : « المسقى من الأرض بالغيث أو بالسانية ، وهي ما يسقى عليه الزرع أو بعير غيره » .

عليهم من الواو فنحوْ نحوها » [٤٩] .

والخلاصة هنا أن قضية الخفة والثقل قد لعبت دوراً واضحاً في الأصوات اللغوية ، وبخاصة حين تندمج هذه الأصوات بعضها في بعض لتكون مقطعاً أو كلمة ما .

ج ـ الخفة والثقل على مستوى الكلمة المفردة :

عني علماء اللغة بالكلمة عناية فائقة ، وتناولوها من الزاوية التي تتفق وتخصصهم اللغوي ، فالنحاة على سبيل المثال ، دأبوا على تعريفها ووضع ميزانها الصرفي ، وضبط فائها وعينها ، في أوائل مصنفاتهم النحوية [٥٠] .

والكلمة ـ كما هو معروف ـ هي مدار علم الصرف جميعه ، لأنها الاداة التي تزوده بالوحدات اللفظية المتنوعة في صيغها وموازينها ، وهي كذلك الخطوة الثانية ، بعد الصوت في بناء التركيب النحوي . ومن هذه الكلمات ما ينبو عنها السمع ، ويمجها الذوق ، ويشتم فيها رائحة الإزعاج ، ومنها ما يود المرء لو يسمعها مرات ومرات ، ومردّ ذلك في رأينا إلى الخفة والثقل في تضافر وحداتها الصوتية المكونة لها . وقد أدرك علماء الفصاحة ذلك حين بيّنوا أن فصاحة الكلمة ينبغي أن تكون خالصة من التنافر ، قال الخطيب القزويني : « فالتنافر منه ما تكون الكلمة بسببه متناهية في الثقل على اللسان وعسر النطق بها كما روي أن أعرابياً سئل عن ناقته فقال : تَرَكْتُها ترعى الهُعْخُع . ومنه ما هو دون ذلك كلفظ مستشزر في قول آمرىء القيس (الطويل) :

غَدَائِـرُهُ مُسْـتَـشْـزِرَاتٌ إِلَى الـعُـلَا   تَضِـلُّ العُقَـاصُ فِي مَثْنىً ومَـرسَـلِ [٥١]

وقد لاحظ علماء اللغة موضوع الخفة والثقل في الكلمات المفردة ، مستمدين ذلك من اللغة ذاتها وليس من المنطق والفلسفة . وقبل الحديث عن أثر الخفة والثقل في مسائل الصرف

٤٩ ـ سيبويه : **الكتاب** ٤/١١٩ .

٥٠ ـ ابن مالك ، جمال الدين بن عبد الله : **تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد** ، تحقيق محمد كامل بركات ، القاهرة ، دار الكاتب العربي ١٩٦٧ ص ٣ . وابن عقيل ، عبد الله ، بهاء الدين بن عبد الله : **شرح ابن عقيل** ، تحقيق محمد محيي الدين ، ط ١٤ ، بيروت ١/١٥ .
وابن الحاجب ، أبو عمر ، عثمان بن عمر : **شرح الكافية** ، ط ٢ ، بيروت ، سنة ١٩٦٩ ج/٣ـ٤ .

٥١ ـ القزويني الخطيب ، أبو عبد الله محمد : **الإيضاح في علوم البلاغة** ، تحقيق عبد المنعم خفاجي ، بيروت دار الكتاب اللبناني سنة ١٩٧٥ ص ٧٣ .

العربي نود لو نشير إلى أنه ربما دار في خلد النحاة أن الصرف ومسائله أصعب من النحو ومسائله ، ولذلك أخروا الحديث عنه الى ما بعد الحديث عن النحو ومسائله ، ومما يؤيد ما نذهب اليه أنهم دوّنوا مسائل الصرف في أواخر مؤلفاتهم النحوية [٥٢] وبذلك يكون منهج النحاة قد تأثر بقضية الخفة والثقل ، أما أثر هذه القضية في المسائل الصرفية فكثير نورد منها المسائل التالية :

١ ـ يقرر النحاة أن الفعل أثقل من الاسم ، ولا خلاف في ذلك بين المدرستين البصرية والكوفية. وانما اختلفوا في تعليل هذه الخفة ، فبينما يذهب البصريون إلى أن الأفعال أثقل من الأسماء ؛ لأن الأخيرة يستغني بعضها ببعض عن الأفعال نحو قولك : اللّه ربّنا ،ومحمد نبيّنا، وزيد أخوك ، والأفعال لا تستغني عن الأسماء ولا توجد إلاّ بها ـ ذهب زعماء الكوفيين كالكسائي (١٨٩هـ) والفرّاء (٢٠٧هـ) وهشام (٢٠٩هـ) إلى أنّ خفة الاسم تؤول إلى استتاره في الفعل ، أمّا الفعل فلا يستتر في الاسم . أما أبو العباس ثعلب (٢٩١هـ) فقد علل خفة الأسماء لأنها جوامد لا تتصرف على عكس الأفعال فانها لتصرفها صارت أثقل من الأسماء [٥٣] .

٢ ـ قسم علماء العربية الفعل إلى مجرّد ومزيد ، وقالوا : إنّ الأصل في الفعل ألاّ يقل عن ثلاثة أحرف ثم نظروا إلى المجرد فوجدوه نوعين : مجرد ثلاثي نحو : كَتَبَ ونَصَرَ ومجرد رباعي نحو : زَلْزَلَ وبَعْثَرَ . أما المزيد فقسموه قسمين أيضاً ، مزيد ثلاثي نحو : أَخرج وحاوَل ، ومزيد رباعي نحو : تَدَحْرَجَ واَطْمَأَنَّ . وقد رأوا أنّ الثلاثي أخف من الرباعي والخماسي ومن ثم جاء في الثلاثي ما تحتمله القسمة وهي الاثنا عشر مثالا ، إلاّ مثالاً واحداً وهو فِعُل وذلك للخروج فيه من الكسر إلى الضم ومن ثم ثقل ورفض بسبب هذا الثقل [٥٤] .

٣ ـ لاحظ الصرفيون أن الفعل المعتل الألف حين يسند إلى واو الجماعة وياء المخاطبة يبدو فيه من الثقل بحيث لا يستطيع المتكلم أن ينطق الفعل حين الإسناد إلا اذا حذف أحد حروف الفعل لكي يسهل عليه النطق من ذلك اسنادك الفعل (يَسْعَى) الى واو الجماعة فيصبح على هذه الصورة (يَسْعَى و ن) فالألف ، بوصفها حركة طويلة ، أخف الحركات ، والواو ،

٥٢ ـ ينظر على سبيل المثال : كتاب سيبويه ، مفصل الزمخشري ، شرح ابن عقيل ، كافية ابن الحاجب ، كتب هشام وغيرها من كتب النحو المتون .

٥٣ ـ الزجاجي ، أبو القاسم : **الايضاح في علل النحو** ، تحقيق مازن المبارك ، ط ٢ ، بيروت ، دار النفائس سنة ١٩٧٣ ص ١٠٠ .

٥٤ ـ ابن جني : **الخصائص** ٦٨/١ ، ولمزيد من التفصيل ينظر ، السيوطي : **المزهر** ، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي ١٩٨/١ .

بوصفها حركة طويلة ، أثقل الحركات والجمع بينهما في النطق يؤدي الى الثقل ومن ثم يضطر المتكلم إلى حذف الألف لخفتها وليحصل بثبوت الواو على الغرض وهو الإسناد .

ومثل ذلك يقال حين تسند الفعل ذاته إلى ياء المخاطبة إذ يصبح على هذه الصورة (اسعى ي) فالالف خفيفة والياء ثقيلة والجمع بينهما يؤدي الى ثقل في النطق ومن ثم لا بدّ من حذف الالف للتخفيف .

٤ ـ وما قيل في إسناد الافعال المعتلة الألف يمكن أن ينطبق على الأفعال الاخرى صحيحة كانت أو معتلة ؛ وذلك حين تؤكد هذه الأفعال بنون التوكيد الثقيلة ، فالفعل (تكتب) حين تسنده إلى واو الجماعة ثم تؤكده بنون التوكيد الثقيلة يصبح على صورة (تكتبون نن) ونطق الفعل على هذه الصورة أمر مستثقل ، ومن ثم لا بد من إجراء عملية حذفٍ لبعض الحروف فتحذف نون الإعراب لتوالي الأمثال (نون الجماعة ونونا التوكيد) وبعد ذلك يبقى الفعل صعب النطق بسبب التقاء الساكنين (واو الجماعة والنون الأولى من نوني التوكيد) وللتخلص من هذه الصعوبة تحذف واو الجماعة لتصبح الهيئة التركيبية للفعل على صورة (تَكْتُبُنَّ) .

وحين تؤكد الفعل المعتل المسند الى واو الجماعة فإنك تلجأ الى حذف وتحريك في صورة الفعل حتى تصل الى هيئة تركيبية خفيفة على اللسان من ذلك اسناد الفعل (تَسْعَى) إلى واو الجماعة ثم توكيده بنون بنون التوكيد الثقيلة ؛ إذ تصبح هيئتُه على صورة (تسعى و ن نن) فتحذف الألف لصعوبة الجمع بين الألف والواو في النطق ، ثم تحذف نون الرفع لصعوبة نطق الأمثال المتوالية فتصبح هيئة الفعل على صورة (تَسْعَوْنّ) ومن الملاحظ أنّ الواو ساكنة والنون الأولى من نوني التوكيد ساكنة أيضاً ، والجمع بينهما فيه من الثقل ما لا يخفى ، كما أن حذف أيٍّ منهما ينافي الغرض وبالتالي لا بد من اللجوء إلى وسيلة أخرى من وسائل التخفيف وهي تحريك الواو لتصبح هيئة الفعل على صورة (تَسْعَوُنَّ) .

٥ ـ وكما لجأ المتكلم إلى الحذف والتحريك بوصفهما وسيلتين من وسائل التخفيف في الأمثلة السابقة فقد لجأ أيضاً الى زيادة (ألف) ليتمكن بها نطق الفعل المسند الى نون النسوة والمؤكد بنون التوكيد الثقيلة نحو : (تكتبن = تكتبنانٍّ ، لتدعون = لتدعونانٍّ ، لتسعين = لتَسْعَيْنَانٍّ لتجرين = لتَجْرينَانٍّ) ؛ إذ لا يمكن الاستغناء عن هذه النونات الثلاث لأن نون النسوة للإسناد ، ونوني الثقيلة للتوكيد كما أن الجمع بينها في النطق ثقيل ومن ثم زيدت

الألف فاصلة بينها للتخفيف [٥٥] .

٦ ـ تحاشى العرب في لغتها اللجوء الى التراكيب والصيغ المستثقلة ، ومن ثم لجأوا إلى إهمال كثير منها حتى لا يكثر في كلامهم ما يستثقلون [٥٦] . من ذلك اهمالهم لأمثلة : فَعْلُلٍ ، وفَعْلِلٍ ، وفُعْلَلٍ .

٧ ـ لاحظ علماء اللغة أنَّ ما جاء من الكلمة على حرفين بدىء بالفتح لخفته قال ابن جني : « ومن حديث الاستثقال والاستخفاف أنك لا تجد في الثنائي ـ على قلة حروفه ـ ما أوله مضموم إلا القليل وإنما عامته على الفتح نحو : هَل ، وبَل ، وقَد وأنَّ ، وعَن ، وكَم ، ومَن ، وفي المعتـل أو ، ولَـو وكَي ، وأي ، أو على الكسر نحو : إن ، وإذ ، وفي المعتل إي ، وفِي ، وهِي » [٥٧] .

كما أن ما جاء من الكَلِمِ على حرف واحدٍ عامتّه على الفَتْح إلا الأقل نحو همزة الاستفهام وواو العطف وفائه ، ولام الابتداء ، وكاف التشبيه ، ولا يوجد في العربية كلمات جاءت على حرف واحد أولها مضموم بسبب ثقل الضمة [٥٨] .

والخلاصة أن قضية الخفة والثقل بدت واضحة في مسائل الصرف ، وأن هذه الخفة جاءت من عدة طرق هي : الحذف ، والتحريك ، والزيادة بمعنى حذف حرف أو تحريكه أو زيادة حرف آخر الى بنية الكلمة ليسهل نطقها كما لاحظنا سابقا .

د ـ الخفة والثقل على مستوى التركيب النحوي :

يُعرِّف بعض النحاة النحو بأنه « علم مستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العـرب ، المـوصلة إلى معرفة أحكام أجزائه التي تأتلف منها » [٥٩] . وهذا التعريف ـ كما هو ملاحظ ـ توجهه ظلال منطقية لا ظلال لغوية وان كان مستنبطاً من كلام العرب ، ولو أن النحاة وجّهوا عنايتهم نحو اللغة في تعريف النحو لاستطاعوا أن يضعوا لنا تعريفاً أيسر وأسهل مما ذكروا بحيث ينصب هذا التعريف على وضع الكلمة في النظام النحوي ثم وظيفتها فيه بحيث يؤدي

٥٥ ـ عبده الراجحي : **التطبيق الصرفي** ، بيروت ، دار النهضة العربية ، سنة ١٩٨٤ ص ٦٤ .

٥٦ ـ سيبويه : **الكتاب** ٤/٤٣٠ .

٥٧ ـ ابن جني : **الخصائص** ١/٦٩ .

٥٨ ـ ابن جني ١/٧٠ .

٥٩ ـ ابن عصفور ، علي بن مؤمن : **المقرّب** ، تحقيق أحمد عبد الستار وعبد الله الجبوري ، ط ١ ، بغداد سنة ١٩٧١ ج ١/٤٥ .

هذا النظام معنى يحسن السكوت عليه . ولاستطاعوا أيضاً التوجه الى اللغة يستمدون منها تعليل كثير من مسائل هذا النّظام ، ولخفت حدة المنطقية في تعليل قضاياه ، ولنا في اهتمامهم ببعض القضايا النحوية المستمدة من اللغة في التعليل أكبر دليل على ما نذهب إليه فالتقديم والتأخير والحذف والزيادة ، والإنابة والخفة والثقل كلّها قضايا لغوية لجأ إليها النحاة في كثير من المسائل النحوية غير أن انسياقهم وراء الفكر المنطقي قلل من عنايتهم بتلك القضايا .

ومَهْمَا يَكُنْ فإنَّ الدارس لأبواب النحو العربي يلاحظ بوضوح أثر الخفة والثقل بشكل أو بآخر ، وفي رأينا أن النحاة اضطروا إلى اللجوء إلى الخفة والثقل حين لم يسعفهم المنطق في تعليل بعض القضايا النحوية . ولعل من أهم هذه القضايا ما يلي :ـ

١ ـ لاحظ النحاة صعوبة نطق الأمثال المتوالية في التركيب ، حتى وإن كانت هذه الأمثال من النـوع الخفيف ، ولذلك نجد عبارة (كراهية توالي الأمثال) تتردد في مصنفاتهم ، ومن الأمثلة التي يسوقونها لذلك ، إسناد الفعل الماضي إلى ضمير المتكلم أو واو الجماعة أو نون النسوة نحو قولك : ضَرَبْتُ ، وضَرَبُوا ، وضَرَبْنَ ، فلو لم يلجأ المتكلّم الى السكون العارض في المثال الأول وبحركة الضم في المثال الثاني ، وبالسكون العارض في المثال الثالث وطلب منه أن يتلفظ بالفعل في حال الإسناد ذلك لوجد من الثقل والمشقة في النطق ما لا يخفى .

٢ ـ أجـاز النحاة حذف أداة النداء ولا سبب لذلك سوى التخفيف وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اَغفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ [٦٠] كما أجازوا حذف الحرف الأخير من المنادى للسبب ذاته ، وذلك حين يكون المنادى غير مستغاث ولا مندوب ولا ذي إضافة ولا ذي إسناد . [٦١]

٣ ـ يرى النحـاة أن الاسم أخف من الصفـة . « وقـد علل أبـو علي الفـارسي ثقـل الصفة بأربعة أوجه :ـ

أ ـ أنها تناسب الفعل في الاشتقاق .

ب ـ أنها تناسبه في تحمل الضمير .

ج ـ أنها تناسبه في العمل .

د ـ أنها تفتقر إلى موصوف تتبعه .

ولما ثقلت من هذه الأوجه أشبهت ثقل المركب ، ومن ثم كانت زيادة الحركة على الخفيف وهو

٦٠ ـ من الآية ١٤٧ من سورة آل عمران .

٦١ ـ ابن هشام : اوضح المسالك ١٠١/٣ .

الاسم أولى من زيادتها على الثقيل [٦٢].

٤ ـ لاحظ النحاة قضية الخفة والثقل في باب العدد المركب نحو : خمسة عشر فقالوا : إنَّ أصلها خمسة وعشر ، ولكن عدل عن إثبات واو العطف طلباً للخفة [٦٣].

٥ ـ كثر في باب النداء حذف ياء المتكلم اكتفاء بالكسرة دليلاً عليها نحو قولك : ربّ اغفر لي ذنوبي وفي التنزيل : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [٦٤] إذْ حذفت ياء المتكلم من قوله (ربّ) طلباً للخفة .

٦ ـ حذف نون مضارع كان شريطة أن يكون المضارع مجزوماً بالسكون ، غير متصل بضمير نصب ولا بساكن نحو قوله تَعَالَىٰ : ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِياً ﴾ [٦٥] ومن الشواهد الشعرية على ذلك قول الشاعر : [٦٦] (الطويل)

فَمَنْ يَكُ أَمْسَى بِالْمَدينَةِ رَحْلُهُ فإنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبُ

ولا سبب لذلك سوى طلب الخفة ، والبعد عن الثقل .

٧ ـ يقول النحاة إن الفعل المضارع معرب مرفوع بالضمة الظاهرة على آخره إن كان صحيحاً والمقدرة إن كان معتلاً ، أما إنْ كان صحيحاً فأمره سهل وأما إن كان معتلاً ففي إظهار الحركة على الحرف المعتل ثقل في النطق ، ومن ثم لجأوا إلى التخلص منها ، فقالوا في يَخْشَى ويَغْزُو ويَرَى أفعال مضارعة حذفت الحركة من آخرها لثقل نطقها على حروف العلة .

قال الزجاجي : « إن الأفعال المعتلة اللامات قد سلبت حركتها في حالة الرفع فصار ينطق بها غير متحركة لاستثقال الحركات فيها فصارت بمنزلة متحرك » [٦٧].

٨ ـ إن حذف التنوين في باب الممنوع من الصرف يعد مظهراً من مظاهر الخفة في النحو العربي إذ إنَّ الاسم في هذا الباب بلا تنوين أخف نطقاً وأيسر تلفظاً على المتكلم من تنوينه وذلك نحو قولك : جَاءَ عُمَرُ ، ورَأَيْتُ عُمَرَ ، ومَرَرْتُ بِعُمَرَ .

٩ ـ كما أن النحاة حذفوا أداة النداء في قولك : اللَّهُمَّ ، ويعلل الكوفيون سبب هذا الحذف

---

٦٢ ـ السيوطي : **الأشباه والنظائر** ١/٦٥ .

٦٣ ـ حسن باشا ، ابن علاء الدين : **الافتتاح في شرح المصباح** ، تحقيق أحمد حامد ط ١ ، نابلس ، مركز التوثيق والمخطوطات والنشر ، التابع لجامعة النجاح الوطنية نابلس ١٩٩٠ ص ٩٠ .

٦٤ ـ من الآية ١١٤ من سورة طه .

٦٥ ـ من الآية ٢٠ من سورة مريم .

٦٦ ـ هو ضابيء بن الحارث .

٦٧ ـ الزجاجي : **الايضاح في علل النحو** ص ١٠٣ .

بقولهم : « إنما قُلنا ذلك لأن الأصل فيه : يا اللّهُ أُمَّنا بخَيْرٍ ، إلا أنه لما كثر في كلامهم وجرى على ألسنتهم حذفوا بعض الكلام طلباً للخفة ، والحذف في كلام العرب لطلب الخفة كثير ، الا ترى أنهم قالوا : هَلُمَّ ووَيْلُمِّهِ ، والأصل فيه هل أمَّ وويل أمِّه » [٦٨] .

١٠ ـ لا يَجمع النحاة ما بين تنوين وإضافة ؛ لأن في الجمع بينهما ثقلاً في المنطق ، ومن ثم عدلوا عن الثقل إلى الخفة بحذف التنوين ، وقد خصّ النحاة الخفة في الإضافة اللفظية دون المعنوية [٦٩] وفي رأينا أن الإضافة بنوعيها ـ اللفظية والمعنوية ـ تفيد ـ بصورة أو بأخرى ـ التخفيف ، صحيح إن الإضافة المعنوية تفيد التخصيص أو التعريف ، ولكنها الى جانب ذلك تفيد الخفة ففي قولك (غُلَامُ زَيْدِ) سهولة بائنة عن قولك (غُلَامٌ زَيْدٍ) وهذا ما يؤيد ما يذهب إليه النحاة من أن الجمع بين التنوين والإضافة يؤدي إلى ثقل في نطق تركيبهما . كما أنهم لك يجمعوا ما بين تعريف وتنوين للسبب ذاته وهو الخفة ، إذ إنَّ نطق (رَجُلٍ) أخف من نطق (الرَّجُلِ) .

١١ ـ تروي كتب التراث اللغوي والنحوي أن الأدوات النَّحْوية حصل فيها اختزال واختصار طلباً للخفة ، ومن أشهرها (لن ، لكنّ ، ليس ، مهما) ، أمّا لن فيرى الخليل والكسائي أنها كانت مركبة من (لا أن) فحذفت الهمزة للتخفيف والألف لالتقاء الساكنين ـ أي للتخفيف أيضاً ـ فأصبحت لن [٧٠] . والنطق بها على هذه الصورة أخف من نطقها على هيئة (لا أن).

أما (لكن) فيرى الفرّاء انها مركبة من (لكن وأنّ) ثم حذفت الهمزة للتخفيف والنون لالتقاء الساكنين [٧١] ، فأصبحت (لكن) ، أما (ليس) فهي عند الخليل والفرّاء مركبة من (لا أيس) حذفت الهمزة للتخفيف وأدمجت الياء باللام فصارت ليس [٧٢] ، ومهما ـ هي الأخرى ـ مركبة عند الكوفيين من (مَهْ) اسم فعل مبني بمعنى اكفف ، ثم زيد عليها (ما) فحصل بالتركيب معنى (لم يكن) وقد أجاز سيبويه ما ذهب إليه الكوفيون [٧٣] . أما البصريون فيرون أنها مركبة من (ما) الشرطية زِيدَ عليها (ما) فثقل اجتماعهما

٦٨ ـ ابن الانباري : **الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين** ، تحقيق محمد محيي الدين ، ط ٢ ، القاهرة ، مطبعة حجازي سنة ١٩٥٣ ج ٢١١/١ .

٦٩ ـ ابن عقيل : **شرح ابن عقيل** ٤٦/٢ .

٧٠ ـ ابن هشام : **مغني اللبيب** ص ٣٧٤ .

٧١ ـ ابن هشام ص ٣٨٤ .

٧٢ ـ الزبيدي ، مرتضى محمد بن محمد الحسيني : **تاج العروس** ، القاهرة ، (ليس) .

٧٣ ـ الصبان ، محمد بن علي : **حاشية الصبان على شرح الاشموني** ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ١٢/٤ .

فأبدلت ألف الأولى هاء طلباً للخفة [٧٤] .

وقد يؤدي التخفيف في بعض الأدوات النحوية إلى تغيّر في وظيفتها النحوية ، فمن ذلك أن (لكنّ) شأن ، (إنّ) من حيث اختصاصها بالجمل الاسمية ، غير أنها حين خففت نونها زال عنها هذا الاختصاص كقوله تَعَالَىَ : ﴿ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [٧٥] كما يبطل بالتخفيف عملها نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنِ اللَّهَ قَتَلَهُم ﴾ فيمن قرأه بتخفيف النون . وما قيل في « لكنّ » يقال في (إنّ) ، إذ إن تخفيف نونها يؤدي إلى كثرة إهمال وظيفتها النحوية في بعض المواضع نحو قولِه تَعَالَىَ : ﴿ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [٧٧] ومن ذلك (كأنّ) فإنها إذا خففت نونها تعامل معاملة (أنّ) غير أنه يجوز إثبات اسمها أو إفراد خبرها . أي يكون اسماً ولا يفصل بينه وبينها إذا كان جملة اسمية [٧٨] نحو قول الشاعر [٧٩] : (الطويل)

وَيَوْمـاً تُوَافِـينَـا بِوَجْـهٍ مُقَسَّـمٍ　　كَأَنْ ظَبْـيَةً تَعْـطُو إلى وَارِقِ السَّـلَمِ

فيمن روى بنصب ظبية .

ومهما اختلفت آراء النحاة حول تلك الأدوات من حيث كونها بسيطة أو مركبة فإنّ الذين قالوا بتركيبها لاحظوا أنه طرأ عليها اختزال وأنها أخذت صورة جديدة ليخفف نطقها ، وانها بهذه الصورة التي آلت إليها طرأ تأثير على وظيفتها النحوية .

وعلى كل حال ، فإنّ التخفيف واقع في التركيب النحوي ، وأنّ النحاة صرفوا قسطاً من تفكيرهم في تبيان ذلك التخفيف وإن بدا ذلك التخفيف متناثراً في أبواب النحو العربي .

هـ ـ قضية الخفة والثقل وأثرها في التعليل : ـ

عُنِيَ اللُّغَويون بعامةٍ والنحاةُ بخاصةٍ بالتعليل اذ أخذوا منذ بداية نشأة النحو يبحثون عن علل للظواهر النَحوية واللغوية ، كَأنْ يتساءلوا عن علة رفع الفاعل ونصب المفعول ، ولماذا جاءت هذه الكلمة على هذه الصورة أو تلك في التركيب النحوي ؟ وقد ملئت كتب النحاة الأوائل بهذه

٧٤ ـ الصبان : ١٢/٤ .
٧٥ ـ من الآية ٥٧ من سورة البقرة .
٧٦ ـ من الآية ١٧ من سورة الانفال .
٧٧ ـ الآية ٣٢ من سورة (يس) .
٧٨ ـ إبراهيم بركات : **الجملة العربية** ، مصر ، مكتبة الخانجي سنة ١٩٨٢ ص ١٤٣ .
٧٩ ـ هو أرقم اليشكري ، المقسّم : الجميل ، تعطو : تتناول أطراف الشجر .

العلل ، ولعل أقدم من بحث في العلة بشكل واضح هو الخليل بن أحمد ؛ إذ وردت في كتاب سيبويه عدة مسائل لجأ فيها الخليل إلى التعليل ، قال سيبويه : « سألت الخليل عن قولهم : « اَضْرِبْ أيّهُم أفضل » ، فقال : القياس النصب كما تقول : « اَضْرب الذي أفضل » لأنّ أيّاً في غير الاستفهام والجزاء بمنزلة (الذي) كما أن (مَنْ) في غير الجزاء والاستفهام بمنزلة (الذي) . ونحو قوله : « وقال الخليل : (إنما) لا تعمل فيما بعدها كما أن (أرى) إذا كانت لغواً لم تعمل فجعلوا هذا نظيرها من الفعل ، كما أن نظير أن من الفعل ما يعمل » [٨٠] .

وهذا أبو الخطاب الأخفش يعلل نصب كلمة (سبحانَ) في قولك : (سبحانَ اللّه) فيزعم أنها كقولك : (بَراءةَ اللّه من السوء) ، كأنك تقول : أبرىء براءة اللّهِ من السوء » [٨١] .

أما سيبويه فقد ملىء كتابه بتعليل الظواهر اللغوية والنحوية فمن ذلك تعليله لخفة النكرة وثقل المعرفة فيقول : « لأن النكرة أوّل ثم يدخل عليها ما تعرّف به » [٨٢] ومنها قوله : « ومما لا يكون فيه إلا الرفع (أعبد الله أنت الضاربُ) ، لأنك إنما تريد (انت الذي ضَرَبَهُ) ، فهذا لا يجري مجرى الفعل ، ألا ترى أنه لا يجوز أن تقول : ما زيد أنا ضارب ، ولا زيداً الضارب » [٨٣] .

ومهما يكن فان النحاة على اختلاف مذاهبهم اخذوا بالتعليل ، غير أن هذا التعليل كان ـ في بدايته ـ يعتمد على ما وقر في أذهان النحاة من سلامة الذوق العربي ، وحبّهم للتخفيف وبعدهم عن الثقل ، ثم ما لبث ان تمكن سلطان المنطق والكلام والثقة من تفكيرهم بحيث انصرفوا يبحثون لكل شيء في النحو عن علة على النمط الذي عرفوه في المنطق والكلام والفقه ، فابتعدوا بذلك عن ذوق اللغة السليم إلى الجدل والنقاش العقيم ، فكثرت التواليف في العلل النحوية كثرة تجعلنا أمام كتب في المنطق والكلام لا أمام كتب نحوية أو لغوية خالصة . ومن أشهر هذه المؤلفات (علل النحو) لقطرب (ـ٢٠٦هـ) وكتاب (علل النحو) للمازني (ـ٢٣٠هـ) وكتاب (الإيضاح في علل النحو) للزجاجي (ـ٣٢٧هـ) وغيرها [٨٤] وقد غالى النحاة مغالاة شديدة في نظرتهم للعلل حتى إن الزجاجي قسّمها إلى ثلاث : تعليمية ، وقياسية ، وجدلية نظرية [٨٥] ولم

٨٠ ـ سيبويه : الكتاب ١٣٨/٢ .

٨١ ـ سيبويه : ٣٢٤/١ .

٨٢ ـ سيبويه ٢٢/١ .

٨٣ ـ سيبويه : ١٣٠/١ .

٨٤ ـ مازن المبارك : النحو العربي (بحث في نشأة النحو ، وتاريخ العلّة النحوية) ، ط ٣ ، بيروت ، دار الفكر سنة ١٩٧٤ ص ٧ ـ ٢٥ .

٨٥ ـ الزجاجي : الايضاح في علل النحو النحو ص ٦٤ .

الكسرة أولى بها ، كما كانت الضمة أولى بالواو في قُلْتُ وليس في بنات الياء فَعُلْتُ كما أنه ليس في باب رَمَيْتُ فَعُلْتُ ، وذلك لأنّ الياء أخـفُّ عليهم من الواو وأكثر تحويلاً للواو من الواو لها ، وكرهوا أن ينقلوا الخفيف الى ما يستثقلون » [١٧] .

كما عقد باباً بعنوان « هذا باب ما يسكن استخفافاً وهو في الأصل متحرك » [١٨] ، ومن أمثلته على ذلك قول ٱبن لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل : (الرجز)

لَوْ عُصْرَ مِنْهُ ٱلبَانُ والمِسْكُ ٱنْعَصَرْ [١٩]

يريد عُصِرَ .

ويعلل سيبويه ذلك بقوله : « وإنما حملهم على هذا أنهم كرهوا أن يرفعوا ألسنتهم على المفتوح إلى المكسور والمفتوح أخـف عليهم ، فكرهوا أن ينتقلوا من الأخف إلى الأثقل وكرهوا في عُصِرَ الكسرة بعد الضمة كما يكرهون الواو مع الياء في مواضع ، ومع هذا انه بناء ليس من كلامهم إلا في هذا الموضع من الفعل ، فكرهوا أن يحولوا ألسنتهم إلى الاستثقال » [٢٠] .

وبهذا يكون سيبويه من أوائل النحاة الذين تناولوا قضية الخفة والثقل ، واستغلها في تفسير بعض المسائل الصوتية والصرفية .

وفي القرن الثالث نجد المبرِّد (ـ٢٨٥ هـ) يتعرض لموضوع الادغام كما فعل سيبويه من قبل ، ويرى أن الغاية منه تيسير النطق الذي أشار اليه بنقل الأثقل إلى الأخف [٢١] .

وفي القرن الرابع نرى ٱبن جنى (ـ٣٩٢ هـ) يذكر قضية الخفّة والثقل بعبارات متعددة ، كالتخفيف والاستثقال ، والأخف والأثقل والخفة والثقل وغيرها [٢٢] . والمتتبع لجهود ابن جني اللغوية يدرك أنّ الرجل قد أثار قضايا لغوية كثيرة جديرة بالبحث والعناية ، وأجاب عن تساؤلات لغـوية متعـددة ، مردّهـا إلى اللغـة وليس الى المنـطق والفلسفـة ومن أهمها ، الزيادة [٢٣]

---

١٧ ـ سيبويه ٣٤١/٤ .

١٨ ـ سيبويه ١١٤/٤ .

١٩ ـ البيت من الرجز .

٢٠ ـ سيبويه : **الكتاب** ١١٤/٤ .

٢١ ـ المبرّد ، أبو العباس ، محمد بن يزيد : **المقتضب** ، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ، بيروت ، عالم الكتب ٩٧/١ ، ٢٠٦ .

٢٢ ـ ابن جني **الخصائص** ٤٩/١ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٧٨ ، ٨٦ .

٢٣ ـ ابن جني : **المنصف** ١١/١ ، **الخصائص** ٢٧٣/٢ .

يقفوا عند هذا الحد بل ذهبوا الى البحث في علة العلّة فنشأ عندهم ما سمي بالعلل الثواني والثوالث مما جعل بعض اللغويين والنحاة كآبن جنّي وابن مضاء القرطبي ، يتصدون لهذا الجدل ، فطالبوا بالعودة الى اللغة كي يستخرجوا منها ما يسعفهم في تعليل المسائل اللغوية والنحوية .

فآبن جني يرفض العلل الثواني وما بعدها (٨٦) ، وآبن مضاء كذلك يناقش النحاة في تلك العلل ـ فينادي برفض تلك العلل لعدم فائدتها فقال : « وما يجب أن يسقط من النحو : العلل الثواني والثوالث ، وذلك مثل سؤال السائل عن زيد في قولنا : (قَامَ زَيْدٌ) لم رفع ؟ فقال : لأنه فاعل مرفوع ، فيقول : لِمَ رُفِعَ الفاعِلُ ؟ فالصواب أن يقال : كذا نطقت به العرب ، ثبت ذلك بالاستقراء من الكلام » (٨٧) ، وفي كلام آبن مضاء هذا دعوة مباشرة للعودة الى اللغة نستمد منها تعليلنا لظواهر النحو ، لا أن نقحم في اللغة ما ليس منها ، غير أن النحاة ، رغم هذه النداءات ، شغفوا بالتعليل المنطقي ، وابتعدوا عن التعليل اللغوي السليم فجرّهم الى الانشغال بالمنطق وأحكامه ، والكلام وفروعه ، والفقه وتعليله للإفادة منها في تعليل الظواهر النحوية ، ومن ثم نشب الخلاف بينهم ، وجعل الناس يتذمرون من قضايا النحو ، قال يزيد بن الحكم الثقفي مبرزاً هذا التذمر : (الوافر)

إذاَ اجـتَـمَـعـوا عَلَى أَلِـفٍ وواو ... وياءٍ ثَارَ بَيْنَهُـمُ جِدالُ (٨٨)

وقال أبو عثمان المازني : (المتقارب)

تَفَـكَّـرْتُ في الـنَّـحْـوِ حَتَّـى مَلِلْتُ ... وَأَتْـعَـبْـتُ نَفْـسِـي لَهُ وَالْـبَـدَنْ
فَقَـدْ خِفْـتُ يَا بَكْـرُ مِنْ طُولِ مَا ... أُفَـكِّـرُ في أَمْـرِ (أَنْ) أنْ أُجَـنْ (٨٩)

ومع شغف النحاة بقضايا المنطق وغيره في تفسير الظواهر النحوية إلّا أنهم أدركوا أنّ هناك قضايا نحويةً أو لغويةً أخرى لا يُمكن أن تعلل إلا باللغة ذاتها ، غير أن هذه القضايا لم تأخذ من تفكيرهم وجهدهم القدر المماثل الذي بحثوا فيه القضايا التي أرجعوها الى العلوم الخارجة عن طبيعة اللغة بحيث يتركون للأجيال المتأخرة أمر تطورها والافادة منها في دراسة التراث الادبي واللغوي .

٨٦ ـ ابن جني : الخصائص ١٧٣/١ .
٨٧ ـ ابن مضاء : الرّد على النّحاة ص ١٢٧ .
٨٨ ـ ابن يعيش ، يعيش بن علي : شرح المفصّل ، القاهرة ، المطبعة المنيرية ٢٩/٦ .
٨٩ ـ ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم : **عيون الاخبار** ، القاهرة ، دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٥ ص ١٥٧ .

والخلاصة التي يمكن أن نتوصل إليها هنا هي أن هناك نوعين من العلل ، علل منطقية تستمد قوتها من علوم المنطق والكلام والفقه ، وهذه أخذت من النحاة واللغويين جهدا كبيرا دفعهم الى خلافات ومماحكات أضرت بأحكام النحاة في كثير من المسائل ، وأخرى لغوية تستمد طاقتها من اللغة ذاتها ، وهذه لا خلاف يذكر حولها بين النحاة . ويمكن أن تندرج قضية الخفة والثقل ضمن تلك العلل اللغوية ، وبخاصة أن الفصحاء من العرب قد أخذوا بهذه الخفة ، قال اَبن جنِّي : « سألت غلاماً من آل المُهَيَّا فصيحاً عن لفظة من كلامه لا يَحضرني الآن ذكرها : كذا أم كذا ، فقال : كذا بالنصب لأنه أخف ، فجنح الى الخفة » (٩٠) .

كما ذكر اَبن جني قصة أخرى تدل على جنوح العرب إلى الخفة ونبوّ الاستثقال فقال : « اخبرنا أبو إسحاق القرميسني عن اَبن هارون عن أبي حاتم السجستاني في كتابة الكبير في القراءات قال : قرأ عليّ أعرابي بالحرَم (طيبى لهم وَحُسْنُ مآب) (٩٠) ، فقلت طوبي ، فقال : طيبى ، فأعدت فقلت : طوبى فقال : طيبى ، فلما طال عليّ قلت : طوطو ، قال طي طي ، أفلا ترى إلى هذا الأعرابي كيف نبا طبعه عن ثقل الواو إلى الياء فلم يؤثر في التلقين ، ولا ثنى طبعه عن التماس الخفة هزّ ولا تمرين » (٩٢) .

وَإذا كان من طبع العربي أن يميل الى الخفة في كلامه فهل كان لهذه الخفة أثر في أحكام النحاة وتعليلهم ؟ وللاجابة عن ذلك نقول : ان المتتبع لقضايا اللغة والنَّحْو يجد النحاة في كثير من المسائل قد اَضطروا الى الأخذ بقضية الخفة هذه في التعليل من ذلك :-

١ - لاحظ النحاة أن المتكلّم العربي يَهْرُب من الثقيل إلى الخفيف ، نحو هروبه من توالي الضمتين أو الكسرتين في جمع غُرْفَة وكِسْرَة إلى الفتح تارة فيقول : غُرُفَاتٍ ، وكِسَرات ، وأخرى الى السكون فيقول : غُرْفَاتٍ وكِسْرَاتٍ (٩٣) .

٢ - انقلاب بعض حروف الصيغة الواحدة الى حروف أخرى أيسر وأخف نطقاً من عدم انقلابها من ذلك أنهم يعللون قلب الواو في مِوْزَان ومِوْعَاد إلى ياء بسبب ثقل الواو الساكنة بعد كسرة وكذلك : « قلب الياء في مُيْسِر ، ومُيْقِن واوا لسكونها وانضمام ما قبلها ولا توقف في ثقل الياء الساكنة بعد الضمة ، لأن حالها في ذلك حال الواو الساكنة بعد الكسرة ، وهذا

٩٠ - ابن جني : **الخصائص** ، ٧٨/١ .

٩١ - من الآية ٢٩ من سورة الرعد ، والقراءة (طوبىٰ لَهُم وَحُسْنُ مآب) .

٩٢ - ابن جني : **الخصائص** ، ٧٦/١ .

٩٣ - ابن جني : ٥٨/١ .

أمر يدعو الحس إليه ، ويحدو طلب الاستخفاف عليه » [٩٤] .

٣ ـ كما أنَّ هناك بعض الكلمات إذا نطقت على أصلها فإنها تبدو نابية وصعبة ومن ثم قلبوا بعض حروفها إلى حروف أخرى أيسر نطقاً ، من ذلك أنهم عدلوا عن الأصل لثقله في نحو سَيْود ، ومَيْوت ، وطَوْيَ وشَوْي إلى سيِّد وميِّت وطيِّ وشيٍّ لأنها أخف على ألسنتهم من اجتماع الياء والواو مع سكون الأول منهما [٩٥] .

٤ ـ ذكر سيبويه كثيراً من صيغ الأسماء التي كان للخفة أثر في توجيه نطقها بهيئة مقبولة عند المتكلّم ، من ذلك أن المتكلّم يهرب من الصعب إلى الخفيف في نحو : صُيَّم في صُوَّم ، وقُيَّم في قُوَّم ، وقُيَّل في قُوَّل ، ونُيَّم في نُوَّم ، وما ذلك إلاّ لأن الياء عندهم أخف من الضمة فلجأوا إليها [٩٦] .

٥ ـ قال سيبويه : « ومن قال : خُطُواتٌ بالتثقيل فإن قياس ذلك في كُلْيَة كُلُوات ، ولكنهم لم يتكلموا إلا بِكُلْيَات مخففة ، فراراً من أن يصيروا إلى ما يستثقلون ، فألزموها التخفيف [٩٧]

٦ ـ يعلل ابن الأنباري نقل فعل التعجب من الثلاثي دون غيره لأن الثلاثي أخف من غيره ، فلما كان أخف من غيره احتمل زيادة الهمزة وأما ما زاد على الثلاثي فهو ثقيل لم يحتمل الزيادة [٩٨] .

واذا كان النحاة قد عللوا بناء كثير من الكلمات المفردة على أساس قضية الخفة والثقل على ما لاحظنا قبل قليل فإنهم عللوا أيضاً قضايا نحوية كثيرة بهذا القياس من ذلك :

١ ـ قدّم النحاة بعض أبواب النحو على بعض ولم يكن هذا التقديم في منهجهم عبثاً أو اعتباطاً وإنما كان ذلك لأسباب منها قضية الخفة والثقل ، فمن ذلك انهم قدّموا المرفوعات على المنصوبات وأعطوا المرفوعات أقوى الحركات وهي الضمة في حين أعطوا المنصوبات أخفها وهي الفتحة ويرجعون ذلك إلى ان المتكلم في أول نطقه أقوى نفساً وأظهر نشاطاً . ومن ثم قدموا المبتدأ والفاعل وأعربوهما بأثقل الحركات وأخروا المفاعيل وأعربوها بأخف الحركات [٩٩] .

---

٩٤ ـ ابن جني : ٤٩/١ .
٩٥ ـ ابن جني : ٥٠/١ .
٩٦ ـ سيبويه : **الكتاب** ، ٣٦٢/٤ .
٩٧ ـ سيبويه : ٤١١/٤ .
٩٨ ـ ابن الانباري : **اسرار العربية** ، ص ١٢٠ .
٩٩ ـ ابن جني : **الخصائص** ، ٥٥/١ .

٢ ـ يجيب ابن الأنباري عن تساؤل يدور حول عدم عكس الحركة فيما بين نون التثنية ونون جمع المـذكر السالم في نحو قولك) رَأَيْتُ الزَّيْدَين وجَاءَ الزَّيْدُونَ أو رَأَيْتُ الزَّيْدِينَ فيقول : « الوجه الأول أن نون التثنية تقع بعد ألف أو ياء مفتوح ما قبلها فلم يستثقلوا الكسرة فيها ، وأما نون الجمع فإنها تقع بعد واو مضموم ما قبلها أو ياء مكسور ما قبلها فآختاروا لها الفتحة ليعادلوا خفة الفتحة ثقل الواو والضمة والياء والكسرة ولو عكسوا ذلك لأدى الى الاستثقال إمّا لتوالي الأجناس وإمّا للخروج من الضم الى الكسر [١٠٠] .

٣ ـ يرى النحاة أنَّ الأصل في (حبّذا) هو (حَبُتَ ذا) ، وإنما جعلتا بمنزلة كلمة واحدة طلبا للخفة ، أمّا لماذا ركبت مع المفرد والمذكر دون المؤنث والمثنى والمجموع ؟ فيجيب عن ذلك ابن الأنباري بقوله : « لأن المفرد المذكر هو الأصل ، والتأنيث والتثنية والجمع كلّها فرع عليه وهي أثقل منه فَلمَّا أرادوا التركيب كان تركيبه مع الأصل الذي هو الأخف أولى من تركيبه مع الفرع الذي هو الأثقل » [١٠١]

٤ ـ علل ابن الأنبـاري إقـامة بعض الظروف والحروف مقام الفعل بالخفة فقال : « إنّ قال قائل : لم أقيم بعض الظروف والحروف مقام الفعل ؟ قيل طلباً للخفة ؟ لأن الأسماء والحروف أخف من الأفعال ، واستعملوها بدلاً عنها طلباً للتخفيف » [١٠٢] .

٥ ـ يرى النحاة أن (قَاضٍ) في قولك : هذا قاضٍ يا فتىً ، ومَرَرْتُ بقاضٍ أصلها (قَاضِيٌ) وقَاضِيٍ ، إلا أنهم استثقلوا الضمة على الياء في المثال الأول كما استثقلوا الكسرة عليها في المثال الثاني ، فحذفوهما طلباً للخفة ، غير أن الكلمة تبقى صعبة النطق في المثالين بسبب التقاء الساكنين وهما الياء والنون الأمر الذي لا بد فيه من حذف الياء وبقاء الكسرة دليلاً عليها ، ولا يجوز حذف التنوين لأنه إنما جاء للصرف أولاً ، ولأنه لو حذف فلا دليل عليه وذلك لأن الحذف في العربية سواء أكان على مستوى الكلمة أم الجملة لا بد له من دليل لفظي أو معنوي .

٦ ـ يعرف النحاة الترخيم في باب النداء بأنه حذف آخر المنادى ، ولا علة لهذا الحذف سوى التخفيف [١٠٣] .

٧ ـ يرى النحاة أن زيادة ألف وتاء في آخر جمع المؤنث السالم في نحو : مسلماتٍ وصالحاتٍ دون

١٠٠ ـ ابن الانباري : **اسرار العربية** ، ص ٥٦ .
١٠١ ـ ابن الانباري : ص ١٠٨ .
١٠٢ ـ ابن الانباري : ص ١٦٢ .
١٠٣ ـ ابن الانباري : ص ٢٣٦ .

واو أو ياء لأن الألف أخف منهما : ولأنَّ الأصل في مسلماتٍ وصالحاتٍ هو مسلمتات وصالحتات ، غير أن في الكلمتين جمعا ما بين علامتي تأنيث وهذا ثقيل على ألسنتهم ومن ثم لجأوا إلى حذف التاء الأولى لتصبح الكلمتان (مسلماتٍ وصالحاتٍ) ، ولو نطقتا على الأصل لبان الثقل كما لا يخفى .

٨ ـ يرى سيبويه أن التنوين إنما دخل الكلام علامة للأخف ، ذلك أن التنوين يضارع في خفة حروف العلة [١٠٤] .

٩ ـ عَلّل النحاة كثرة المنصوبات على المرفوعات من زاوية الخفة والثقل ، فلما كانت المنصوبات تطلب الفتحة ، وهي أخف الحركات ، كثرت لكثرتها وخفتها ، وأما المرفوعات فهي أثقل من المنصوبات ، وبالتالي أُعطيت اثقل الحركات وهي الضمة [١٠٥] .

١٠ ـ علل النحاة بناء الفعل المضارع إذا اتصلت به نون التوكيد بالفتح طلبا للخفة [١٠٦] .

١١ ـ علل النحاة عدم جواز قولك : الضاربُ زيدٍ للثقل مع عدم المشابهة لقولك الحسنِ الوجهِ [١٠٧] .

وبذلك تستطيع القول : إن قضية الخفة والثقل قد اعتمدت أساسا من أسس التعليل عند اللغويين والنحاة وأن الأمر فيها موكول إلى اللغة وليس الى المنطق .

الخلاصة

والخلاصة التي يمكن أن نصل إليها في هذا البحث تتمثل فيما يلي :

١ ـ كشف هذا البحث عن أن علماء اللغة بعامة والنحاة بخاصة قد عنوا بقضية الخفة والثقل واعتمدوها أساسا من أسس التعليل لكثير من مسائل الصوت والكلمة والتركيب النحوي ، غير أن جهودهم فيها تناثرت في تواليف النحو واللغة بحيث يصعب على القارىء الإلمام بها ، والاحاطة بجوانبها وتتبع وقوعها في مظانها في كتب التراث اللغوي والنحوي .

٢ ـ أبان البحث عن أن طرائق التخفيف على مستوى الكلمة تتأتّى من عدة أوجه أهمها : **الحذف والزيادة ، والادغام ، والإنابة .**

---

١٠٤ ـ ابن الانباري : ص ٣٥ .

١٠٥ ـ السيوطي : **الاشباه والنظائر** ، ١/١٩٣ .

١٠٦ ـ حسن باشا ، ابن علاء الدين : **الافتتاح في شرح المصباح** ، ص ٩٢.

١٠٧ ـ حسن باشا : ص ١٢٢ .

٣ ـ كشف البحث عن أن النحاة ساروا في تعليلهم لقضايا الصوت والكلمة والتركيب النحوي في اتجاهين : الأول بتسلهم قوته من علوم خارجة عن اللغة كالمنطق وعلم الكلام ، وعلم الفقه ، والثاني يستمد قوته من اللغة . وأن العناية بالجانب الأول حظيت بجهد من النحاة أكثر من عنايتهم بالاتجاه الثاني .

٤ ـ اثرت قضية الخفة والثقل في منهج النحاة فرتبوا بعض أبواب النحو العربي وفق هذه القضية على نحو ما رأينا من تقديمهم المرفوعات على المنصوبات والمجرورات . وذلك لثقل الأول لقلتها وخفة الثانية والثالثة لكثرتها .

٥ ـ كشف البحث عن أن الخلاف في القضايا اللغوية والنحوية التي عللوها على أساس لغوي لم تقع بينهم فيها خلافات تذكر على عكس التي رجعوا في تعليلها الى علوم المنطق والكلام والفقه . ومن ثم كثرت الكتب الخلافية في الثانية دون الاولى [١٠٨] .

٦ ـ في البحث دعوة إلى إعادة النظر في دراسة قضايا اللغة والنحو ، بحيث تخفف حدة التأثير المنطقي والفلسفي فيها ، وذلك بالرجوع الى اللغة ذاتها نستمد منها التعليل السليم ومن ثم اظهار القضايا بصورة يمكن ان يفيد منها نقاد اللغة والأدب بعامة ودارسو الاسلوبية الحديثة بخاصة .

---

١٠٨ ـ من أهم هذه الكتب : : **اختلاف النحويين لثعلب** (٢٩١ هـ) ، **والمسائل على مذهب النحويين مما اختلف فيه البصريون والكوفيون** لابن كيسان (٣٢٠ هـ) ، **والرّد على ثعلب في اختلاف النحويين** لابن درستوية (٣٤٧ هـ) ، **والانصاف في مسائل الخلاف** لابن الانباري (٥٧٧ هـ) وغيرها .
الافغاني ، سعيد : **في أصول النحو** ، ط ٣ ، دمشق ، مطبعة جامعة دمشق سنة ١٩٦٤ ، ص ٢٢٧ .